

# أزمة الجنس في القصة العربية

بقلم غالى شكرى

« على القارئ أن يراجع الأعداد ٣ ، ٤ ، ٥ من الآداب سنة ١٩٦١ حيث يطالع بحثا بعنوان « الجنس والفن والانسان » هو مجرد مقدمة لموضوعنا الرئيسي « أزمة الجنس في القصة العربية » الذي لم تتح لنا الظروف حينذاك إرسال بقية فصوله الى الآداب لأسباب قهرية » غ. ش.

يفلق القانون المصري بيوت البغاء منذ عام ١٩٤٩ نجد ان هذه البيوت ازدادت عددا ، وتنوعت اشكالها ، فتلحظ انتشارا مذهلا لبائني الصور العارية وكتب الجنس الفاضحة . وما من مراهق الا ويتساءل بشغف عن « رجوع الشيخ الى صباه » او « مذكرات ايفا » او « كازانوف » وغيرها من القصص الرخيص الذي يملأ الاسواق باسم الادب والفن ، وهما منه براء . ولكنها ظاهرة خطيرة اثبتتها الرسائل العلمية التي تقدم بها طلبة وطالبات قسم الاجتماع والدراسات النفسية بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، حيث تناولوا بالدرس اللبيق ملامح هذه الازمة ، وانتهت دراساتهم الى نتيجة هامة جدية بالتأمل . فقد تاكد لديهم ان تاريخ المجتمعات العربية - في خط سيره الطويل - لم يفرز بفترات من الاستقرار التام . وما يفلب بالفعل على شكل تطوره هو اجتيازه عدة مراحل متلاحقة من نقاط التحول والانتقال . وتتميز نقطة التحول غالبا بالحدة ، فلا يجدي معها الحسم اذا تعرضت للدراسة والمناقشة . على ان ذلك لا يعني مطلقا اننا لا نستطيع تحديد معاني حياتنا ومفاهيمها ضمن هذا الاطار الاجتماعي المتقلقل . اذ مجرد حصولنا على صورة صادقة لهذا الاطار يعني حصولنا في اللحظة نفسها على ما تتضمنه هذه الصورة من معان ومفاهيم ...

ورغم ان الخطوط العريضة في لوحة المجتمعات العربية متشابهة ، فان التفاصيل الصغيرة قد تكسب الواحد منها صفات ذاتية يختلف بها عن الآخر . فلو بحثنا عن السمة الغالبة على الادب اللبناني ، لاكتشفنا انها ليست تماما هي السمة الغالبة على الادب المصري ، رغم القرابة التاريخية التي تربط المجتمعين ، وبالتالي الاديين . ولنتبين هذه الفروق من خلال عرضنا لبعض النماذج من هنا ومن هناك .

في احدى اقصيص الكاتب اللبناني توفيق يوسف عواد (١) يحكي لنا قصة امرأة قروية كانت تمارس البغاء في المدينة ، ثم نقلها عشيقها ذات يوم ، فحملت الى مسقط رأسها في القرية حيث دفنت . وتتشغل القرية كلها بالقصة ، وتشير الى نراء المرأة ، وتروي ان خاتما نمينا ما يزال في اصبعها . وهنا يبرز مختار القرية غاضبا يريد ان يحرق الاكاييل والصليب الذي وضع على قبر الزانية التي لا تستحق هذا الشرف . ويتسلل في الليل الى المقبرة ، فينبش القبر ويقطع اصبعها بخاتمه ، ويعود جزءا يرتعد من الخوف مما خيل اليه من رؤية الاشباح . وفي اليوم التالي رأى احد الرعاة بالقرب من المقبرة ، اصبعها مقطوعا فيه خاتم ، فاقشعر من المنظر ، وحسبه اصبعها لاحدى بنات الجن كما روت له جدته فيما مضى ، وجاء بحفنة تراب وطره بها ثم مضى في سبيله . ويتضح في النهاية ان المختار كانت له علاقة سابقة بالمرأة ، وانه كان السبب الاول في دفعها الى البغاء . ويعلق الدكتور سهيل ادريس على

ينبغي ان نتفق حول حقيقة هامة ، وهي ان اي مجتمع حديث يعتبر وليدا لما سبقه من مجتمعات ، فالحضارة القائمة في عصرنا هي ابنة العصور الذهبية مضافا اليها ما استجد من ظروف التقدم . لذلك يتحتم ان نبحث اولا عن جلور تراثنا ، قبل ان نبحث أزمة الجنس في القصة العربية الحديثة . فليس شك اننا وراثنا الكثير من مقومات الحياة المادية والقيم الفكرية القديمة . حتى انه يلزم لنا ان نفحص في اعماق التكوين الاجتماعي لحضارتنا ، منذ اللحظة التي قامت فيها دولة للرفيق، ولعب الجوارى والقيان دورا كبيرا في حياة المجتمع العربي . حينذاك راح الشعراء يصورون العلاقات الانسانية الناشئة في مثل هذه الدولة . العلاقات الشاذة والطبيعية على السواء . وبرزت دلالات جديدة للعلاقة الجنسية ، استمدت مضمونها ومحتواها من جوف البيان الحضاري الجديد . « ففي عاصمة بغداد ايام العباسيين ، والقاهرة ايام الفاطميين ، ومن بعدهم من السلاطين ، نرى ان بيوتنا للام تقوم ودورا للدعارة تشبه ونرى النساء الساقطات يقمن هذه البيوت باسم الدولة وفي حمايتها ، ونرى المواخير والحانات في عصر الرشيد والمامون والمعتمد والمتوكل ، تنقلب الى دور للدعارة في العصر البويهي . ثم يقر ذلك الوضع الشاذ الغريب في بلد اسلامي كالعراق ، وترسم على هذه البيوت ضريبة تدخل حصيلتها الى بيت المال . ثم تنتشر العدوى الى مصر الفاطمية فيذكر صاحب كتاب « الخطط » بيوت الفواحش التي كانت تجبي عليها الرسوم ، ويضمن تحصيلها ضامن » (١)

ويتحدث احد المؤرخين الانجليز عن هذه الفترة فيقول : « يمكنك ان تتصور الفساد الذي يحيق بالرجل والمرأة على السواء نتيجة سهولة الطلاق . وقد وجد في مصر عدد كبير من الرجال تزوجوا في مدى عشر سنوات نحو عشرين او ثلاثين زوجة . كما ان هناك نساء لسن متقدمات في السن ، صرن زوجات لاثني عشر رجلا او اكثر على التوالي . وقد سمعت عن رجال اعتادوا ان يتخذوا زوجة جديدة كل شهر ، وللرجل الحق ان يفعل ذلك مهما كان دخله او ما يمتلكه ضيلا ، فهو يختار من بين نساء الطبقة الفقيرة ارملة حسناء او امرأة مطلقة رضاه زوجها اذا دفع لها صدقا عشرة شلنات ، حتى اذا طلقها ليس عليه الا ان يدفع لها نصف هذا المبلغ تنفق منه على نفسها خلال فترة العدة » (٢)

هذه اذن ، هي التركة التي ورثها مجتمعنا على مدى الاجيال . ويبدو واضحا ان كافة العادات والتقاليد الماصرة هي امتدادات طبيعية لما اشتمل عليه مجتمعنا - فيما مضى - من مقومات . فما يزال الطلاق وتعدد الزوجات ، وما يتبعهما من علاقات كالزنا والبغاء . بل ان هذه جميعا بلغت من السطوة والرسوخ حدا الفى معه قوة القانون . فبينما

١ - محمد عبد الفنى حسن - ملامح من المجتمع العربي - « سلسلة اقرأ » ( ص ٤٦ ) .  
٢ - أ.ولين - انجليزى يتحدث عن مصر - ترجمة فاطمة محبوب - كتب للجميع - ( ص ٤٦ ) .

١ - اسم الاقصصة ( المقبرة الدنسة ) وموجزها عن الدكتور سهيل ادريس في كتابه « القصة في لبنان » مطبوعات معهد الدراسات العربية - ( ص ٥٣ ) .

وعلى هذا النحو تضي صفحات القصة ، فلا نعر على موقف جنسي صريح ، لان العلاقة بين الرجل والمرأة في ذلك المجتمع لم تكن نفسها صريحة. وما نلاحظه في الرواية من احاديث (عن الجنس ، تكتسي بثوب فضفاض من الحياء والتخفي ، فلان نظرة العصر والمجتمع الى هذا الموضوع ، كانت هي بعينها نظرتة الى سائر الاشياء : نظرة ضبابية غائمة تحيل كافة الرغبات والعلاقات الى الوان باهتة غير واضحة .

لنقفز اذن خمسة عشر عاما بعد ظهور ( زينب ) لنتلقى باحد رواد المدرسة الحديثة ، واقصد به محمود طاهر لاشين . سنفاجأ بان النظرة الرومانسية في الحياة والادب على السواء ، بدأت تنقش لكن المفاجأة تصبح غير ذات موضوع لو تتبعنا الخطوات التاريخية الرائعة التي نقلت المجتمع المصري - بعد ثورته عام ١٩١٩ - الى مرحلة حضارية جديدة ، تختلف من جميع زواياها ، مع المرحلة السابقة لهذا التاريخ ، كان ( حامد ) في قصة هيكل شابا مستسلما للمقادير . ما ان تزوج ابنة عمه حتى ينحني للماطفة . ثم يمي استحالة عواطفه نحو ( زينب ) فلا يني عن التراجع والتقهقر . غير ان السنوات التي بدأت بفشل الثورة الوطنية ، اخذت تشحن النفوس بقوى ايجابية جديدة وفدت مع ثبات اقدام الطبقة المتوسطة وبزوغ سلطانها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. صاحبت هذه الطبقة نظرة جديدة للحياة والانسان والمجتمع ، انعكست على آداب تلك الفترة وفنونها . ولنستعرض - على سبيل المثال - اقصيص المجموعة الثانية لطاهر لاشين ، المسماة بـ ( يحكى ان ) فترصد الموضوعات التي طرفتها واشكالها التصويرية ، لنحصل في النهاية على « اهتمامات العصر » ونظرة المجتمع اليها :

- \* « يحكى ان » : موظف ابله يتزوج من فتاة داعرة لها عاشق .
- \* « حديث القرية » : فلاح يقتل زوجته وعشيقتها .
- \* « الفخ » : فواد يتظاهر بانه من الايمان ، وأنه فقد وعيه من الخمر ، ويجر ضحاياه الى داره وهي ماخور .

## لُعِطْنَا حُبًّا

الديوان الاخير للشاعرة المبدعة

فدوى طوقان

دار الآداب

الثلثون ٢٥٠ ق.ل

هذه القصة بانها « تصوير صادق للمشاعر التي تنتاب اهل القرية ( اللبنانية طبعاً ) تجاه امرأة ضلت طريقها » . بينما نجدها بعيدة كل البعد في اجوائها وتحليلها عن القرية المصرية ومشاعرها ازاء مثل هذه المرأة . فالاحساس بالخطيئة الذي يشعر به المختار نحوها هو احساس مسيحي في الغلب ، ولا يمت الى شخصية « سارق الاصبغ » بصله ما ، بل لا يمت الى شخصية الثائر على التقاليد التي وضعت الصليب على قبر بغي . ربما لا نعر على هذا الاحساس المسيحي الحاد بالخطيئة في غير لبنان . ولكنه يعتبر من الخصائص المميزة لادبه ، بل ويضع أيدينا على خيوط العلاقات الانسانية في هذا المجتمع ، ومن ثم يهدينا الى تحديد واضح بين لاحداها . اعني العلاقة الجنسية ، التي نحاول ان نتعرف على دلالتها ومفهومها من الاعمال الادبية ، وكيف سلكت هذه الاعمال في مهمتها التعبيرية .

كذلك نجد للمرأة الاجنبية في القصص اللبناني نصيبا موفورا ، قل ان تحظى به آداب المجتمعات العربية الاخرى . فلاستاذ عواد يعالنج موضوع الحب المراهق في قصة بعنوان ( الشاعر ) وهي قصة طالب يقع في حب امرأة ايطالية تنزل بفندق ابيه . كما نرى قصة ( الاعدام ) لخليل تقي الدين ، حيث يهوى شاب في العشرين من عمره راقصة اسبانية تعمل في احدي ملاهي بيروت . هذه هي الموضوعات التي تقدم لنا « مشكلة الجنس » كما عرفها المجتمع العربي في لبنان . وكما عبرت عنها قصص ادبائه في ذلك الوقت .

فاذا انتقلنا الى القصة العربية في مصر ، التقينا بالفنان السدي أرخ فاجر الرواية المصرية بقصته « زينب » . نجح الدكتور هيكل في هذه الرواية نجاحا باهرا - اذا لم نغفل العامل الزمني - في ان يرسم ببراعة ، الصورة الرومانسية للجنس . وقد صدرت القصة عام ١٩١٤ اي ذلك التاريخ الذي كانت تعاني فيه مصر ازمتها التاريخية مع بداية الحرب العالمية الاولى . وكان النظام الاقطاعي المهيمن على اشكال الحياة المصرية ، يخيم في الوقت نفسه على العلاقات الاجتماعية بين الافراد . لهذا كان ( حامد ) - بطل قصة هيكل - رمزا لشباب ذلك الجيل المعذب ، بين مثله العليا المستمدة من ثقافة الغرب ، وبين الاوضاع السيئة السائدة آنذاك على المجتمع المصري . لقد تزوجت ( عزيزة ) ابنة عمه من شاب آخر ، وضربت الاسرة عرض الحائط بقلب ( حامد ) الذي راح يبحث عن سلواه بين ضلوع فلاحه فقيرة هي ( زينب ) ويحس في اعماقه باستحالة هذا الحب غير المتكافئ . فيفمس همومه في العبت بغتيات القرية . ويبلغ القصاص الذروة في المزاوجة بين طبيعة الريف واخلاقياته . فهو يجعل من الحقول المنبسطة والاشجار والحيوانات والاراضي المترامية ، ظللا حية للموقف الانساني الذي يعرض له . وبالتالي نحس بالصلة الوثيقة بين الدلالة الرومانسية لمنظر الطبيعة ، والدلالة نفسها في المشهد الروائي . ثم نوقن تماما بان الطبيعة والحدث الاجتماعي كليهما ينمان من أرض واحدة يعيها اطار واحد . هكذا جاءت مشاهد « الخطيئة » في الرواية تحيطها هالة من الشعور بالذنب، دفعت حامد لان « يعترف » بتواياه الى احد مشايخ الطرق قائلا : « قابلتني فأخذ بعيني جمالها ، وبهرني فيها عيون نجل وخدود متوردة في لون قمحي جذاب ، وجسم خصب وقوام غض وخصر دقيق وبنان رخص ... وجاء اليوم الذي زوجت فيه هذه الفتاة ، والذي عاهدت نفسي فيه ان انسأها الى الابد . اذا ما دامت لفري ، فمن الفدر الذي لا يليق بي ان افكر فيها مجرد تفكير . ورجعت بذلك لابنة عمي التي وعدت . وجعلت اتخيل لها كل شيء حسن . وتبادلت معها كلمات قليلة ، ولكنها انتهت هي الاخرى بان تزوجت ، فمراني لذلك حزن عظيم . ثم سرعان ما سقطت عن كتفي احماله حتى لقد عرتني الفراية كيف يمكن ان يكون ذلك شائي ... واسلمتني الى نوبة فظيعة هي التي دفعتني اليك . نوبة احسست معها بالحاجة المطلقة ان املك هاته الفتاة الريفية رغما عن انها متزوجة » ( ١ ) .

١ - « زينب » - كتاب الهلال - العدد ( ٢٢ ) يناير ١٩٥٣ ( ص

٢١٥ - ٢١٦ ) .

\* « الكهنة المزهوة » : امرأة عجوز أرمل تتزوج ممن نصاب يسدد أموالها .

لا شك أننا نلاحظ ( القضية ) أصبحت واضحة أكثر من ذي قبل ، بعد أن تحولت المشكلة الى مرحلة أكثر تعقيدا . فالعلاقة بين الرجل والمرأة تشكل موضوعا أساسيا في المجموعة . فاذا عرضنا الآن - بشيء من الاسهاب - لاحدى القصص ، فندرك الى أي مدى اسهم القالب الفني الجديد في ايضاح القضية .

ولكن قصتنا هي ( حديث القرية ) . وفيها يدعى الراوي لزيارة احدى القرى مع صديق له . وهناك يلتقي مع الفلاحين وبؤسهم ، فيحاول ان يتر في نفوسهم بذور التمرد على واقعهم المر ، غير ان المأذون - الاب الروحي للفلاحين ومشكلاتهم - يستهين بمحاولات الراوي ، ويبدأ في سرد حكاية « عبد السميع » الاسكافي الذي ( لم يرض بما قسمه الله له واراد ان يرفع نفسه درجة لم تكتب له في الازل ) فاشتغل حاجبا خصوصا لاجد الموظفين بالمركز . وكان هذا الموظف اعزب ( باع الاخرة بالدنيا ) فاستدرج زوجة عبد السميع - وكانت رائعة الجمال رغم فقرها - فعملت عنده خادما ، الى ان كانت احدى الليالي حين امر الموظف حاجبه ان يذهب الى عمدة القرية برسالة ، وان يعود بالرد في الصباح « سار عبد السميع على جسر السكة الحديدية يفكر في حاله والشك يملأ قلبه ، وكان القمر يضيء له الطريق . فأبصر بين القضبان قطعة من الحديد بطول الفراع ، فتملكته الرغبة ان يعود للدار ، يؤكد فيما بعد انه حاول التغلب على هذه الرغبة فلم يستطع ، كان قوة خفية كانت تجره الى الوراء . واخيرا عاد وفاجأ العاشقين ، فرأى سيده ( في مكان الزوجية من امراته ) . صج السامعون بالتأفف والاشمئزاز ولجأوا الى الله بطلبات لا تخصي . هوى عبد السميع بقطعة الحديد على رأسيهما فماتا فورا « يعبر السامعون عند هذا القول عن تحييدهم واستحسانهم » ولم يتكف عبد السميع بذلك ، بل ظل يضربهما حتى تنثر المخ من رأسيهما ، والنصق بعضه بالجدار « وهنا تنبعث من سامعيه اصوات استحسان وشمئزاز في وقت واحد » .

في هذه القصة ، يحيط لاشين بحملة الظروف الصانعة للمأساة ، فيبرز « الفقر » كمعصر حاسم في تمزق الفلاحين اجتماعيا ، فهم يقادون ببساطة لا وافية وراء المأذون . والمأذون يحمل في جيبه مخدرا شديد الوطأة على نفوسهم هو مجموعة من قصص الفضائح لكنه يتخير الفضائح من نوع خاص يؤثر على هذه النفوس ، فلا تكاد احداها تخرج عن نطاق ( الجريمة والجنس ) . بل لعل الجنس هو ما يقفد اليه مباشرة ، وما الجريمة الا احدى نتائجه . ويكشف المأذون - بغير وعي - عن جراح الفلاح الفائرة في وجدانه . الفلاحون يتأهون في اعماقهم من الفقر ، أما « الخطيئة » فهي اكبر واوقى من « الحياة » لذلك فان معنى خاصا للشرف تحده هذه الحياة : انه هذا الشعور النائم في خلايا دماغهم تحركه أقل هزة من الخارج ، من السطح . ان الفلاحين يشتغلون بالفضب الرهيب عند سماعهم نيا اغتصاب زوجة عبد السميع ، وتبدأ اعصابهم في الارتخاء مع ضربات قطعة الحديد فوق رأسها ورأس عشيقها . على أن استفرافهم التام في القصة وتجاوبهم الشديد مع احداثها يؤكد ان هزة « السطح » هذه ليست من الخارج . انها صدى صريح لدوامسة تشمل كيانهم ، او هي همزة الوصل بين هذه الازمة وظروفهم المحيطة بهم . اما الفنان فيصور المأساة في قالب حي يوائم - الى حد ما - المضمون الاجتماعي الذي يقدمه . فهو يتوخى - في الدرجة الاولى - تسجيل الانعكاسات النفسية في صدور الفلاحين ، ازاء تفاصيل القصة . ولا يبتغى الى ابراز المعنى الجنسي في صورته الفوتوغرافية . بل يتكفي بأن يقول عن الزوج ( رأى سيده في مكان الزوجية من امراته ) ملخصا بذلك موقفا كاملا ، استعاض عن رؤيته الجامدة بتحليل مقدماته واسبابه ونتائجه ، موحيا بما يمثل في جوانح هذه الفئة من الناس من ارادة في ( الستر ) . وها نحن نفرق بين « زينب » و « حديث القرية » ثانية فنقول ان الفلاح في قصة لاشين كان أكثر تسامحا واضطرارا لمواجهة مشكلاته وعلاقاته حتى ولو كان من بينها العلاقة الجنسية .

كذلك لا نرى شيئا لـ « حامد » الثري المستسلم ، بل نواجه الطبقة المتوسطة ممثلة في معاون الادارة الموظف بالمركز . وهكذا تتعدد مستويات الافصوحة وتنوع مناسيبيها ، رغم ان ( القرية ) هي الارض المشتركة بين عيكل ولاشين .

غير ان الاديب « عيسى عبيد » ( ١ ) في قصته « مأساة قروية » هو الذي بلور بشكل رائع هذه المناسيب والمستويات ، والقصة لفتاة قروية وقع ابن عمها في هواها ، ولكنها تصد عنه لتستسلم مختارة لابن صاحب الارض . اذ وجدت عنده في طفولتها شيئا لم تألفه ، هو رقة الحديث والتودد اليها . وتوهمت فيما بعد انها تجد بين احضانه خلاصا من حياتها الضائعة في الفقر والمهانة . اما الشاب فلا يدفعه نحوها سوى شهوته . وكان في البداية حين شعر بحاجته للحب ، لم يجد حوله فتاة تشاركه عواطفه ، لان التقاليد حرمت الاختلاط بين الجنسين . فالتمس الحب عند احدى بانعات الهوى ، فلما وقف على فهم جديد لعلاقة الرجل بالمرأة ، تحول عن غرام الاولى ، وأصبح لا يعرف من الحب الا ما علمته اياه البنى . حينئذ يعزم ابن عم الفتاة على قتل الشاب المستهتر فيجرحه دون ان يصرعه ولكنه ينجح بمساعدة الاسرة في قتل الفتاة تارا لشرفهم .

الملاحظة الاولى ان ( القرية ) هي مهد التجربة الفنية في القصص الثلاث . وان كانت دلالة الجنس تتطور من واحدة لآخرى ، فلان المجتمع ايضا كان يتطور . لذا نرى الشاب الثري في قصة عبيد ، لا يتوقف عند اعقاب الرومانسية في فهم العلاقة الجنسية ، وانما يتجاوزها الى ما تورط فيه مع الفلاحة الفقيرة . والفلاحة هنا تختلف مع ( زينب ) التي لم تاق بالا بالشباب الفني ، وأحبت ( ابراهيم ) رئيس العمال . الفلاحة في قصة عبيد يستهويها الشاب الثري - فيتخلص الكاتب بذلك من مثالية زينب غير المبررة فنيا او اجتماعيا - ثم تستسلم له معلنة بذلك مفهومها في الحب الذي يحمله الثراء والفنى السى الفراش .

ونعود الى الملاحظة الاولى حيث ( القرية ) موضوع اساسي للادباء بصفة عامة ، وموضوع خصب للجنس بصفة خاصة . ولسنا نجد تفسيرا مقبولا للناية المفرطة بالريف - آنذاك - الا بان المدينة - بشكلها الحضاري الجديد - لم تكن حفرت في وجدان الادباء احساسا عميقا بمشكلاتها وقضاياها . ذلك ان التكوين الصناعي كان في خطواته الاولى المتشرة ، قبلما يصبح تكويننا متكامل يدعى المدينة .

ولعل توفيق الحكيم هو أول من ادرك هذا المعنى الجديد في روايته ( الرباط المقدس ) - التي صدرت عام ١٩٢٤ - فقد اوضحت شعوره الحاد بالتمزقات المتناعية التي رافقت ذلك التكوين الحضاري الوافد . ولست اريد ان اعرض لدقائق القصة ، فما يعنيها الا دلالتها الانسانية ، واسلوب كاتبها في التعبير عن هذه الدلالة . والمجور الدرامي في الرواية هو ازمة المرأة الجديدة الحائرة بين الرجل الذي يطلب منها الجسد والاطفال و « عش الزوجية السعيد » ، والرجل الذي يبادلها الجسد بالقلب ، وبهبا مع طيات الفراش اهازيح الروح . ولا ريب ان الازمة كبيرة وحقيقية ، ولقد بلغ الحكيم مستوى عاليا في التقاط مظاهرها ، يدعنا نتخني لمدسته الامينة في التصوير . ويبدو ان هذه الحيرة القلقة لم تقف على المرأة وحسب ، وانما سطت على قلب الرجل ، فجعله عاجزا امامها . فهكذا وقف الحكيم تجاه المظاهر والسطوح الخارجية دون الولوج في انوار الازمة . ولانه لا يمتلك منهجا يفوض به الى جذور المأساة تراه يقف طويلا عند القشور ، وكانها هي السبب اليتيم فيما ادتاليه الاحداث من كوارث . ولنقرأ مثلا ما كتبه المرأة في كراستها الحمراء اذ تقول (٢)

١ - راجع « فجر القصة المصرية » ليحيى حقي - المكتبة الثقافية  
- ( ١٠٢ - ١١٧ )  
٢ - « الرباط المقدس » - الكتاب الذهبي - ( ١٠٦ - ١٠٧ ) .

# الحبر والظلال

(( الى عينين من بلادي ))

تعاليبت ، حتى كانك لغز يجرح  
حرفي  
وعشت مع الصمت في اللانهايه  
سرابا يؤله خوفا  
يرش دروبي عياء  
شحويا وسيل دماء  
ففي شفتي عويل ، وفوق عيوني  
يمد العويل شرايينه ، يغرف الدهع  
لحن انطفاء  
فيا ادمع الصمت مدي شراعك  
لن نستكين  
فمن اجلنا يغسل الحب وجه الصباح  
وتزهر في ارضنا غمغيمات الكفاح  
ويا شمسن ، يا زقزقات المطر  
لنا في عروقك الف غرام  
يتيه على الصحو ، حتى كان القمر  
بقايا خطاه .. وجرح مدام ..  
ويا شمسن يا زقزقات المطر  
سألتك شلال ضوء لهذي المدينه  
عسى في رباها يفيق الاله  
ويخطر تيسان يوما وتنهد  
عسانا نكسر حزن المدينه  
ويا حبر للم ظلالك لن ترتمي في  
دماك السماء  
فبالرفض نحن سنرسم آفاقنا ..  
بالعطاء

\*

تعاليبت حتى كانك لغز يجرح  
حرفي  
وعشت مع الصمت في اللانهايه  
سرابا يؤله خوفا  
يرش دروبي عياء  
فيا حبر للم ظلالك لن ترتمي في  
دماك السماء  
فبالرفض نحن سنرسم تاريخنا ..  
بالعطاء  
بحزن المدينه

عدنان كيلاني

جامعة دمشق

(( ... ففادني الى حجرة نومه ، وتلقى جسمينا ديوان وثير . وقال لي في همسة عذبة : يا حبوبتي . وطوفني والتصفت شفاها ، وتنفسنا والعين في العين ... فخييل الي اني اشرب انفاسه شربا ، وانها تهبط الى سويداء قلبي . فادركت عندئذ ان جسدي كان جوعان حبا ، وان هذا الرجل يستطيع ان يصنع بي ما يشاء . وهنا شمعت باصابعه اللبقة تفك ازدار ثوبي وتجرديني منه بغير لهفة ولا عجلة .. ثم جعل يعجب بي وانا هكذا . ثم اخذ يداعيني بيده وفمه .. انها عين القبله التي عرفتها فيما مضى . ولكنها من قبل كانت تطبع على جسد هامد .. يتمنى في قرارته الخلاص ويود لو يدفع عنه تلك المداعبات الثقيلة التي يتكلف احتمالها تكلفا . اما هذا الحبيب فلا شيء منه اكرهه مطلقا .. لقد خيل الي اني اريد بدوري لو اغطي جسمه بقبلائي . واخيرا حملني وانا في شبه غيبوبة الى سريره المطر . وتركني واختفى لحظته ، ثم عاد متندرا في روب دي شامير خفيف من الحرير (( الساتان )) لم يخلفه عنه وهو يطرح جسمه الى جانبي . وبدأ المداعبة والملاعبة من جديد .. وجعل يهددني بكلمات الحب : يا حبيبتي ، يا معبودتي ، يا حياتي . الى ان صرنا جسما واحدا لا تفصل بيننا شعرة )) .

والسؤال هو : لو ان المشكله اقتصر على هذه الصورة ، لما كانت هناك مشكله على الاطلاق ، فكيف يمكن افناعنا بان (( سيدة )) تعيش في كنف زوج ناجح يتيح لها حياة طالما تمتتها ، ولا يكشف لنا الفنان عيبا او نقصا واحدا يمكن ان ناخذ على الزوج ، ويمكن بدوره ان يمهده لهذه العلاقة مع الرجل الآخر . ثم لا نكتشف في الرجل الاخر ما يميزه عن سائر الرجال ، اللهم الا كونه نجما لامعا ، على ان هذا لا يمتنع الاحداث اذا علمنا ان ما يتفحص المرأة ليس هو الشهرة . ورغم هذا كله اقول ان ما ذكره توفيق الحكيم في ( الرباط المقدس ) شيء ممكن الحدوث الى حد بعيد . وما جعل منه شيئا غريبا هو هذه الوقفة السطحية من الفنان . فلو انه تجاوز (( خارج )) الظاهرة الى (( داخلها )) أي لو انه تعمق الازمة من باطنها ، لنكتشف له المسببات الحقيقية لها ، ولاستطعنا ان نقتنع بها وجدانيا . دون الحاجة الى عرض قطاع مسطح لاحدى زواياها كما فعل الحكيم . ان منهجه في التعبير - الذي اضطره الى سرد المشهد الجنسي في لحظته الميكانيكية - هو تطبيق طبيعي لمنهجه في التفكير الذي اوقفه عند المظهر دون الجوهر .

\* \*

غير ان هذه القصة ، كما قلت ، كانت بمثابة نقطة البداية عند ادبائنا للاحساس بالمدينة احساسا حضاريا يتمثل ازماتها ومشكلاتها وماسيها على نحو يغاير احساسهم الريفية . ولربما قيل : كيف لاديب لم ير القرية طيلة حياته ، ان يعبر عن المدينة - التي عاش فيها - تعبيرا قرويا ؟ . واجيب بان ( المدينة ) ليست هي العاصمة او المحافظة ، وانما هي درجة حضارية تملن حركة التقدم . لذلك نقول ان العلاقات القطاعية التي خيمت على مجتمعنا امدا من الزمن ، خلقت فينا بالضرورة وجدانا زراعيا . ثم اقبلت التطورات الاجتماعية في بلادنا ، واقبلت معها الاحاسيس الجديدة التي بلورت عواطفنا ووعينا في قوالب حضارية جديدة . وتمكن الاديب من التعبير عن القرية - لا المدينة فحسب - تعبيرا متقدما في أسلوبه الفكري والفني على السواء . ذلك ان الطور الصناعي الوليد في بلادنا ، تولدت عنه علاقات معقدة في مجتمعنا ، تبعها لاختلاف مستوياته الاجتماعية وتشابكها ، وانعكاسها على حياته النفسية . ولهذا السبب بعينه كانت العلاقة الجنسية هي (( المحك )) المباشر لهذا التطور في شتى معانيها وقيمتها ودلالاتها .

ولقد عثرت القصة العربية في ادبائنا المعاصرين على محاولات دائية مثابرة للتعرف على هذه المعاني والقيم والدلالات .

( للبحث بقية )

غالي شكري

القاهرة